# عبادة الأصنام العلمية في العصر الحديث:
# استبدال غير المخلوق بالمخلوق

أنطونيوس كارفالاس

**نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي**

أحدى مميزات العصر الحديث تركيزه على العلوم الإيجابية أو الطبيعية وترقيته البشر كآلهة مثبتة. كثيرون هم العلماء الملحدون المعاصرون الذين يتحدثون بصوت عالٍ عن عدم وجود الله، والذين يسعون جاهدين لإثبات ذلك باللجوء إلى البنى الأيديولوجية (وليس العلمية البحتة). بعبارة أخرى، هم يشوّهون المنهجية العلمية ويركّزون على الاستنتاجات الشخصية والاعتباطية. لدى بعض الذين يرون إنجازات العلم الهائلة انطباعٌ بأنه في المستقبل القريب أو البعيد سيقدّم العلم تفسيرات لكل شيء، وبالتالي يدمّر مفهوم الله مرة واحدة وإلى الأبد. هناك أيضًا مَن يعارضون ما سبق، من خلال التأكيد على أن العلم سيثبت بالفعل وجود الله.

في الحالتين، يُنظر إلى العلم على أنه المفتاح لتفسير كل شيء. بمراقبة تقدم العلم، اعتنق الإنسان المعاصر وَهْمَ اكتمال الذات وصار يعبد نفسه كإله، عن وعي أو عن غير وعي.

من المثير للإعجاب ملاحظة إنجازات العقل البشري، والتي - وإن كانت مما بعد السقوط ومظلمة - لا تزال نتاجاً عقلياً. لكن المشكلة تكمن في أن رؤية الواقع تصبح ذات بعد واحد، بالنظر إلى فقدان كمال الإنسان قبل السقوط. فالإنسان ما بعد السقوط يركّز فقط على جانب واحد: اعتبار إمكاناته الهائلة للتدخل في البيئة الطبيعية، وفك شفرة الحمض النووي، وخلق كائنات هجينة، والوقاية من الأمراض وعلاجها، وما إلى ذلك. من خلال التركيز على نفسه وعلى إمكانيات عقله وكلمته، هو فعلياً يعبد نفسه ويؤلهها...

هذا الشكل من العبادة – عبادة الواقع المخلوق والذات - هو عبادة الأصنام، إذ يُنظر إلى المخلوق على أنه غير المخلوق، بالرغم من اختلافه عنه اختلافًا جذريًا، وبالنظر إلى أنه يعتمد كليًا عليه لا يمكن أن يكون هناك شيء مشترك بين هاتين الفئتين المختلفتين كيانياً [١]. في الجوهر، توجد فئة واحدة فقط وهي الحقيقة الإلهية غير المخلوقة، والتي خَلَقَت بمحض إرادتها كل الخلق.

للإنسان وأعماله (كعناصر مخلوقة) حدود. وعليه، للعلم حدوده؛ وهذه حقيقة لا يمكن أن يتصورها عَبَدَة الإنسانية المعاصرون، الذين هم تحت وهم القدرة المطلقة والمعرفة المطلقة. تتم مراجعة الاكتشافات العلمية باستمرار، ويظهر أنها تتعارض مع بعضها البعض، إذ إنها تبحث عن بيانات مخلوقة تنحرف وتتغير مع كل مراجعة للمعرفة، إما كقوة بحثية مستمرة في مجال واحد من المعرفة المطلقة،

أو كفلسفة متخصصة لكل فرع ينظّم ويفهرس عيانياً (μακροσκοπικά -macroscopically ) المعرفةَ المكتسبةَ مجهريًا (μικροσκοπικά - microscopically) عِبر المناهج العلمية. على هذا النحو، يتغير العلم باستمرار ويكون دائمًا متجزئاً ونسبيًا.

من هذا المنظور، إن مفهوم العلم الكلّيّ (omniscience) خادع لأنه مسار ديناميكي، ومع ذلك، لا يخترق أبدًا حدوده.

من سِمات لعالِم الموزون الواعي أن يقتني تواضع نيوتن كمعرفة ذاتية. فنيوتن اعتبر إنه حتى أعظم حكيم يشبه الطفل الذي، أثناء اللعب على الشاطئ، يضع بضع قطرات من الماء في صَدَفة. إن حكمته الإجمالية تعادل تلك القطرات، مقارنةً بمحيط الحقيقة (البيانات - data) الواسع غير المكتشف الذي يمتد أمامه [٢].

هذه الحقيقة البسيطة يهملها عبدة الأصنام هذه الأيام باتّباعهم العلم الشامل بشكل مؤلِم. بالنهاية، لقد أشار القديس غريغوريوس بالاماس إلى أن الذين يقضون حياتهم يقاتلون لاكتساب المعرفة العالمية يؤمّنون لأنفسهم المزيد من الجهل بدل المعرفة [٣]، إذ إن هذه المعرفة بالتحديد متغيّرة وهي تحاصر الإنسان ضمن العالم مانحة إياه وهم تأليه الذات من جهة، بسبب الإنجازات السريعة والملفِتة للعلوم، ومن جهة أخرى، تحبسه في طريقة العيش المادية هوساً بالسعي المستمر إلى المعرفة ومنتجاتها.

إن دور العلم هو البحث في المعطيات التي يقدمها الواقع المخلوق واستعمال نتائج هذا البحث في حياة الناس. يقدّم العلم الراحة ويحسّن شروط حياة البشر. إن دوره هو تربوي وتمهيدي للاهوت [٤]. كل انشغال آخر يعني تخطي حدود العلم المادية وبالتالي الانزلاق إلى استنتاجات مأساوية. بتعبير آخر، عندما يباشر العلماء بمعالجة الله في سعيهم إلى برهانه أو رفضه على أساس المنهجية العلمية يقعون في خطأ منطقي بتخطيهم حدود الوسيلة المسماة العلم. ببساطة، ليس الله حجماً مادياً؛ إنه مختلف بشكل جوهري عن كل مجال أو صفة مخلوقين، لهذا ما يَصِفه العلم ليس جوهر الله بل ما ليس هو الله [٥].

طبيعياً، بحسب القديس غريغوريوس بالاماس، المعرفة المكتَسَبة خارجياً ليست مُدانة، لأنها بطبيعتها ليست حسنة أو شريرة، بل هي تعتمد على الإرادة المعرفية للكائن العاقل الذي يستعملها ويتكيّف معها، بشكل حَسَن أو خبيث، بحسب استعماله لهذه المعرفة [٦].

من جهة، تمرّن المعرفةُ العقل، وهكذا يستطيع أن يستوعب وضعيته المخلوقة وبمراقبته بداية العالم وتكشّفه، يطلب قضيته النوعية. إنه الرابط غير المنقطع بين ما يسمّى الإعلان الطبيعي والإعلان ما فوق الطبيعة، حيث ينتمي الطبيعي إلى إدراك الإنسان الداخلي المنطقي (الممنوح من الله للإنسان كمخلوق بحسب الصورة الإلهية). فالإنسان مخلوق في علاقة مرجعية وشركة مع الله، وفي دراسته

حقيقة الله المخلوقة يُقاد إلى غير المخلوق، فيما الحقيقة الفائقة الطبيعة تشير إلى قوة الله غير المخلوقة، التي تضبط العالم وهي فيه [٧].

إذاً، المعرفة ليست سيئة بذاتها، إذا استعمل الإنسان فكره ودرّبه، إذ لهذا السبب قد أعطي له: للبحث في الخليقة عن "كيف" [٨] للوصول إلى "مَن". تنشأ المشكلة عندما يغمر الإنسان نفسه بالمعرفة العالمية، مزيحاً الله عن كونه نقطة المرجعية وعيش وهم الاكتمال بتصنيم ذاته والمادة. إن هذا لوهم مرعِب، دلالي على مأساة الجنس البشري ما بعد السقوط، إذ تحوّل نحو نفسه لتحديد نقطةالمرجعية التي تحكم انسداد مسالكه الوجودية.

Notes:

[1]. Μητρ. Ναυπάκτου και Αγίου Βλασίου Ιερόθεος, Εμπειρική δογματική της ορθοδόξου καθολικής εκκλησίας κατά τις προφορικές παραδόσεις του π.Ιωάννου Ρωμανίδη, Τόμος Α Δόγμα-Ηθική-Αποκάλυψη, σελ.284. Γ έκδοση, τόπος έκδ. Ιερά μονή Γενεθλίου της Θεοτόκου, Λεβαδειά 2018.

[2]. Ευάγγελος Δ. Θεοδώρου, Τα όρια της επιστημονικής γνώσεως (Πρυτανικός λόγος), εκδόσεις Πανεπιστημίου Αθηνών, τόπος εκδ. Αθήνα, 1981.

[3]. Γρηγόριος Παλαμάς, Άπαντα τα έργα 2, Λόγοι υπέρ των ιερώς ησυχαζόντων,1.1,2 Εισαγωγή κείμενον-μετάφρασις-σχόλια υπό Παναγιώτου Κ. Χρήστου καθηγητού Πανεπιστημίου, σελ.62, εκδόσεις Πατερικαί εκδόσεις «Γρηγόριος ο Παλαμάς», τόπος εκδ. Θεσσαλονίκη 1992.

[4]. Μέγας Βασίλειος, Προς τους νέους 2.

[5]. Ιωάννης Δαμασκηνός,Έκδοσις ακριβής της Ορθοδόξου πίστεως, κείμενο-μετάφραση-εισαγωγή- σχόλια Νικόλαος Ματσούκας, σελ.36,38, εκδόσεις Πουρναρά, τόπος έκδ. Θεσσαλονίκη 2009.

[6]. Γρηγόριος Παλαμάς,1,1.6,σελ. 72.

[7]. Ιωάννης Δαμασκηνός, Έκδοσις ακριβής της Ορθοδόξου πίστεως, κείμενο-μετάφραση-εισαγωγή-σχόλια Νίκου Ματσούκα, σελ.457.

[8]. Μέγας Βασίλειος, εις την Εξαήμερον,PG 29,33B.«πολλὰ ἀπεσιώπησεν, ὕδωρ, ἀέρα, πῦρ, τὰ ἐκτούτων ἀπογεννώμενα πάθη• ἃ πάντα μὲν ὡς συμπληρωτικὰ τοῦ κόσμου συνυπέστη τῷ παντὶ δηλονότι• παρέλιπεδὲ ἡ ἱστορία, τὸν ἡμέτερον νοῦν γυμνάζουσα πρὸς ἐντρέχειαν, ἐξ ὀλίγων ἀφορμῶν παρεχομένη ἐπιλογίζεσθαι τὰ λειπόμενα.»

Source: https://www.pemptousia.gr/2020/08/i-epistimoniki-idololatria-tis-sigchronis-epochis/